

قالت: أهى خسارة أم تخشى أن تسألك عنها صاحبتها؟ إنني لا أنافس الراقصات يا سيدي، فاحفظ بالصورة كما تهوى، ولكن أرجوك أن ترد إليَّ صورتى، فلست أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصور في مكان واحد.

فكبر الأمر على همام، وأحس لأول مرة أن فراق سارة يثقل عليه، فقال لها: إن كان لا يريحك إلا أن تمزقي الصورة فمزقها ...

فما أمهله أن يتم جملة حتى قبضت على الصورة تمزقها كل ممزق كأنها تضر لصاحبها ضغينة وهي لم ترها ولم تسمع باسمها، ولا يذكر همام أنه بصر بامرأة تفرح هذا الفرح بتمزيق ورقة إلا امرأة جاهلة أسلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق زعم أنها هي الرقية التي كتبها لها الضرائر ليبتلينها بالسقم في جسمها والنكد في عيشها، فمزقتها وكأنها تود أن يصير جسمها كله أيدياً تشترك في تمزيقها.

وهكذا أخذت تحاسبه وأخذ يحاسبها، وشعر بالتضييق عليه، ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث إليه، وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنعه وفيمن تلقاه أثناء غيابها، ويتعود أن يسألها وأن يتحرى حركاتها ... وفرغ لها فوق في روعه ألا يقنع منها بما دون الاستئثار والتفرد، وانقلب الجدول الهادئ المنساب رويداً رويداً فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الأسد المتحفز، ولو ظل كما كان جدولاً وديعاً لصفا واسترسل، أو لانتهى كما ينتهي النهر إلى مصبه في رفقٍ وسخاوة.

ذلك سبب من أسباب الهيام، وقلما يكون الهيام لسبب واحد.

ومن أسبابه الكثيرة لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد والتنويع؛ فإن الرجل ليسرُّه أن يستكشف المرأة ويسرُّه ألا يزال واجداً فيها كل حين ميداناً جديداً للاستكشاف، ويسرُّه أن يراقب المرأة وهي تستكشفه وتتخذ لها مسرباً إلى عواطفه، وترفع من دخاله حجاباً وراء حجاب، ويسرُّه أن يستكشف الدنيا معاً والناس معاً والطبيعة معاً بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين، وضيء كله شفاف وتجديد وآفاق تنساح إلى آفاق.

فإن وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سبباً للسامة والعزوف لا سبباً للشغف والهيام.